ضوء جديد على دانتي والإسلام (١)

أربع وثلاثون سنة قد انقضت منذ أن عُرض، على الأكاديمية الاسبانية، كتاب تقدم به عند انتمائه للأكاديمية (Discorso de recepcion)، المستشرق المختص بالدراسات العربية المدعو «ميچويل آسين بلاسيوس»، وكان في شرخ شبابه آنذاك . ولا أزال أذكر الى الآن الأثر الذي تركته في نفس والدي قراءة الكتاب المذكور المسمى «فكرة المعراج الإسلامية في الكوميديا الإلهية»-Escatologia musulmana en la Divina Comedia- وهو أثر امتزج فيه الإعجاب بالدهشة، وكاد يبلغ حد الفزع بالرغم من أن والدي كان من أوائل الذين قاموا بنشر آراء آسين في إيطاليا ؛ ذلك أن الطرافة والجرأة واتساع الأفق التي اتسم بها افتراض آسين، والنتائج التي توصل اليها، أحدثت وقعاً شديداً . ولا أزال أحمل في ذهني ذكريات غير مكتملة الوضوح عن الأصوات المتنافرة التي ارتفعت في نقد المستشرق الشاب، وفي نقد دانتي في جو الحماس المحموم الذي تميزت به احتفالات عام ١٩٢١ بمرور ستمائة سنة على وفاة دانتي، كما اني أحمل ذكريات مبهمة عن حماس المؤمنين بنظرية آسين، وخيبة الأمل المريرة التي مني بها مقدسو دانتي، والأصداء العميقة المتلازمة لكل من التأييد والاستنكار ؛ هذه المشاعر جميعها أثارها كتاب آسين مما لم يسبق اليه أي سفر آخر طيلة مائة عام . ثم ما لبثت أن طغت في كل مكان أصوات المعارضين الذين لم يؤمنوا بنظرية آسين ممن اعتمدوا في ذلك على الحجة أو المنطق أو من الذين آمنوا في أول الأمر

(١) بحث للمستشرق الإيطالي «فرانسسكو غابريلي» ترجمه الأستاذ موسى الخوري .

ثم أخذ إيمانهم يضعف ويهن ، وكان في عدادهم والدي . وقد رد عليهم آسين في كتابه « تاريخ معضلة ونقدها » - Historia y critica de una polemica - ببراهين حية مقنعة ، وشيجة الاتصال بموضوع الجدل . ثم ما غمت حدة الجدل أن خفت وانتهى الأمر ، كعادة الأمور في مثل هذه الحال ، بأن خلف النزاع وراءه عدداً من المسائل يحيط بها سوء التفاهم وعدم الوضوح .

إلا أن التحامل المبدئي على العالم « الإسلامي العربي » الغريب البعيد في لغته وتقاليده ومكانه وحضارته ظل قائماً لا يقهر . وكان آسين يعتقد اعتقاداً راسخاً أن معارضة آرائه ، ولا سيما من قبل الإيطاليين - وهذا أمر كان مطابقاً للحقيقة فعلاً - لم يكن الباعث الوحيد على التبلد الذهني ، أو الفزع من رأي مستجد ، أو التصلب الفكري أمام الحقيقة المرة يُكْشَفُ عنها لأول مرة ، وانما كان بالإضافة الى ذلك كله التعصب الثقافي القومي ، والانصراف التام الكلي للدفاع بأي ثمن عن مجد قومي امتدت اليه يد الانتقاص والتجريح بعد أن ظلت أصالته وعظمته لا يرقى اليهما شك أو نقد حتى ذلك الحين . وقد بذل آسين عناية شديدة في نهاية كتابه ليؤكد بأن مجد دانتي الشعري لم تكن لتنتقص من قدره تلك الصلة الوشيجة المستمرة التي آمن هو أنه اكتشف وجودها بين الصورة التي قدمها دانتي عن العالم الآخر وبين فكرة المعراج وفلسفة الحشر والنشر الإسلامية ، وأردف قائلاً ان اعتزاز الإيطاليين بالاصالة المطلقة لقصيدتهم المقدسة وما انتاب هذا الاعتزاز نتيجةً لنظريته إنما هو الذي أوحى برد الفعل الايطالي أكثر من أي دافع آخر سواه .

فاذا كان هناك والحالة هذه من يعتبر العصبية القومية الايطالية العقبة الأساسية التي حالت دون قبول افتراض آسين ، فعلى مثل هذا أن يدرك أن الفكرة الايطالية في فلسفة النقد والجمال ، هذه الفكرة التي ذاع صيتها في سائر أنحاء أوربة ، هي التي تأبى علينا ، نحن معاشر الايطاليين ، أن نقابل بالفتور مشكلة

لا تمت بصلة الى سمو فن دانتي وصفته الشعرية الفذة ، حتى لو كان دانتي مديناً لابن عربي بكل ما اعتقد آسين أنه مدين له به (وسنرى فيما بعد أن تنبؤات آسين قد ثبتت صحتها في اتجاه آخر) ، فلا ينبغي لنا نحن الإيطاليين من عشاق الشعر أن يخطر ببالنا قط أنه قد ينشأ عن هذا أي انتقاص ، مهما ضؤل ، لعظمة دانتي في الناحية التي وهبنا إياها على وجه ليس له بديل أو مثيل ، ألا وهي الناحية الشعرية . فدانتي الشاعر لا يرقى اليه لوم أو تجريح ، وقصيدته قد تقبل النقد إلا من وجهة النظر الفنية الجمالية ؛ والمستشرق الاسباني العظيم كان في مقدمة من أدركوا هذه الحقيقة البسيطة وأعلنوها . والواقع أن أخطر الانتقادات التي وُجهت الى كتاب آسين كانت تتصل بمناح أخرى غير هذه التي ما كانت لتعتبر وجهة نظر شرعية محققة ، وعلى هذا الأساس وحده نشأت أخطر الشكوك بصدد افتراضات المؤلف . فهل كان دانتي يعرف من اللغة العربيــة ما يؤهله للاطلاع على المواد التي استطاع آسين البحاثة العالم أن يبرزها للمقارنة بقصيدته ؟ وهل كان في الحقيقة أكثر اطلاعاً من عامة معاصريه على شؤون العالم العربي الإسلامي ؟ وكيف تيسر له الاطلاع على انتاج ابن عربي أو أبي العلاء المعري وكلاهما يتصف بالغموض والإبهام ؟ وأي دليل على أن مؤلفات هذين الكاتبين أو أي انتاج عربي آخر يبحث في فلسفة الحشر والنشر قد ترجم الى لغات غربية ؟ ان هذه جميعها مشكلات تقع في مجال أبحاث التاريخ الثقافي ، ويجب علينا حلها إذا أردنا إثبات أسباب التشابه بين فلسفة الحشر الإسلامية وفكرة الحشر عند دانتي كما أوردها آسين . وقد أجاب عنها آسين بقوله إنه ليس من البعيد أن يكون دانتي قد ألم بقليل من اللغة العربية (ولكن الأمر كما نعلم نحن المستشرقين حق العلم يقتضي أكثر من مجرد الإلمام بقليل من العربية لفهم مؤلفات أبي العلاء وابن عربي المعقدة !) ، وأشار آسين أيضاً إلى أنه قادر على أن يبين وجود اهتمام خاص بالتاريخ الاسلامي والثقافة الإسلامية في إنتاج

دانتي ، ابن فلورنسة البكر ، وكذلك نوه آسين باحتمال لم يتمكن من دعمه بالوثائق وهو أن يكون «ألقيري دانتي» قد وقع على نصوص في فلسفة الحشر الإسلامية في بعض الترجمات ، وأن هذه الترجمات قد تكون مما حمله معه برونيتو لاتيني Brunetto Latini عند عودته الى مقاطعة توسكاني بايطاليا بعد انتهاء سفارته لدى ملك اسبانيا في عام ١٢٦٠ م ، وقد كانت هذه النقطة الأخيرة بالذات ، أي الوسيلة التي انتقلت عن طريقها فكرة الإسلام عن العالم الآخر الى دانتي ، هي التي ظلت الى وقت قريب مشكلة مبهمة تؤلف الحلقة المفقودة في السلسلة التي أحكم رباطها آسين ، حلقة حلقة ، بنفاذ وتعمق لا مثيل لهما ، بين اسبانيا العربية - اليهودية - المسيحية في القرن الثالث عشر ، وايطاليا في القرن الرابع عشر .

لقد أصبح معروفاً الآن بعد انقضاء أكثر من ثلاثين عاماً على عرض المشكلة لأول مرة أن الحلقة المفقودة ، قد عثر عليها . ذلك أن عالمين أحدهما اسباني والآخر ايطالي ، (وقد أمسك كل منهما بأحد طرفي السلسلة مستقلاً عن الآخر وغير عارف بجهوده حتى النهاية) ، نشرا خلال هذه السنوات النصين اللاتيني والفرنسي لكتاب اسباني عربي يدور حول فلسفة الحشر العربية الإسلامية . وقد ثبت أن هاتين الترجمتين كانتا معروفتين في ايطاليا في القرن الرابع عشر ؛ وهكذا تظهر لنا مشكلة دانتي والإسلام تحت ضوء جديد كل الجدة . وقد أسميت هذا الكتاب الفذ كتاب (المعراج أو كتاب معراج محمد) وفقاً للأسماء المتعددة التي عُرف بها باللاتينية والفرنسية القديمة والايطالية . وقد تم وضع الكتاب - كما كان متوقعاً بل محتوماً - في بلاط الفونسو بمدينة اشبيلية وبأمر الملك نفسه ، الذي دُعي بحق ملك الدينين أو الأديان الثلاثة ، والذي تصدق فيه هذه الصفة أكثر مما تصدق في جده ، فاتح طليطلة . وكان ابرهيم الفقين ،

الطبيب والعالم اليهودي المشهور بترجماته لمؤلفات ابن الهيثم والزرقاني ، قد نقل الى اللغة القشتالية ، قبل عام ١٢٦٤ بزمن غير طويل ، وبأمر من الملك نفسه ، النص الشائع لقصة المعراج أو رحلة محمد في أنحاء العالم الآخر . وعن ترجمة ابرهيم القشتالية هذه ، وهي ترجمة مفقودة ، أخذ الكاتب الايطالي بونا ڤنتورا من أهل سيينة نص الترجمتين الفرنسية واللاتينية الموازيتين له ، ومخطوطة احداهما لا تزال محفوظة في اكسفورد ببريطانيا في حين حفظت مخطوطات الأخرى في باريس والفاتيكان . وقد نُشرت الترجمتان في آن واحد من قبل أنريكو شيرولي في ايطاليا ، وجوزيه مونوز سنديتو في اسبانيا .

واذا استثنينا المقدمة الوجيزة التي كتبها بونا ڤنتورا سيينة شارحاً أصل الكتاب ومبرراً الغاية من وضعه فنحن نجد بين أيدينا في الحالتين ترجمة أمينة حرفيـة ، وفق أساليب الترجمة في ذلك العصر ، لمؤلف عربي في فلسفة الحشر والنشر ، وقد يكون أصل هذا المؤلَّف مفقوداً ، ولكنه كان ولا شك شائعاً جداً في اسبانيا في القرن الثالث عشر ، كما أنه لا بد أن يكون لهذا الأصل علاقة بالنصوص الأخرى الشفوية الخاصة بفلسفة الحشر التي نسخها أو لخصها آسين في كتابه . ولكنه يمتاز عليها جميعاً بتناسقه وشموله الكاملين ، وفي مقاطع منـه رونق أدبي قديم لا يخلو من قوة التأثير في النفس . أما القصة فهي معروفة : جبريل يوقظ محمداً من نومه في مكة ، ويأمره بامتطاء البراق ، ذلك الجواد المجنح الذي يحمله الى المسجد الأقصى ، ومن هناك يصعد الى السماء على درج ذهبي براق . ومن هنا أخذ اسم الكتاب الذي يتحدث عن أرجاء العالم الآخر . ويرى محمد (ﷺ) بعد ذلك ملك الموت ، ثم يرى ملكاً بشكل ديك ، وآخر نصفه من نار ونصفه من ثلج [1] ويجتاز سبع سماوات ، يلتقي في كل منها بنبي ،

(١) هذا لم يصحّ رواية ولا دراية . (لجنة المجلة)

حتى يمثل أخيراً أمام عرش الله ؛ ثم يزور الفردوس ويرى ما فيـه من مباهج الطبيعة والمحبة ، ويتسلم من الله عز وجل القرآن الكريم وأوامر الصلاة اليومية والصوم[1] ، وتخفف هذه الأوامر فيما بعد استجابة لتوسلاته ، ومن ثم يرى جهنم ، ويطوف بأطباقها ودركاتها السبعة ، ويرى أنواع التعذيب فيها ، بينما يشرح له جبريل يوم القيامة والحساب على جسر الصراط . وعبثاً يحاول لدى عودته الى الأرض اقناع قريش بصدق رؤياه ، وقد دونها ، وشهد على صدقها كل من أبي بكر وابن عباس[2] بناءً على طلبـه . والصفات المميزة للمؤلف الأصلي محفوظة هنا بأمانة ، لا بنتيجة الأسلوب الأدبي لكتاب فحسب (هذا الأسلوب الذي على الرغم مما فيه من تشويه ، يأتي على ذكر عدد كبير من الأسماء والأماكن الواردة في الأصل العربي ، ويردد جملاً عربية كاملة في التسبيح والصلاة) ، بل لخلوه أيضاً من أي شرح أو إيضاحات دفاعاً عن الدين من وجهة النظر المسيحية ، وهكذا فاذا ماجرد النص من حلة اللغـات ذات الأصل اللاتيني التي وُضع فيها ، فاننا نجد فيه العقيدة الإسلاميـة الشعبية في الموضوع محفوظةً بكل ما فيها من صراحة لا تخلو من بعض البساطة .

وهذا الكتاب الذي جعله الملك في متناول يد الغرب المسيحي (في ما لا يقل عن ثلاثة أسفار وربما في أكثر من هذا العدد ، بدافع من حب الاستطلاع الثقافي أكثر من الرغبة في الدفاع عن وجهة النظر المسيحية) ، انتشر بصورة فعالة وبطرق متعددة ؛ وبوسعنا أن نتتبع ما كان له من وقع في اسبانيا وفرنسا وايطاليا . وبناءً على ما بيَّنه شيرولي فان كتاب ابرهيم الفقين المترجم الى لغة قشتالة والذي لم يصل الينا هو المصدر الذي أخذ عنـه « سان بيدرو باسكال » خلاصته

(١) إنما فُرض الصومُ في السنة الثانية من الهجرة ، فبينه وبين فريضة الصلاة خمس سنوات . (لجنة المجلة)

(٢) ولد عبد الله بن عباس في السنة الثالثة قبل الهجرة (أي عام الإسراء والمعراج) كما في « الإصابة » وغيرها . (لجنة المجلة)

الضافيـة عن رحلة محمد (ﷺ) الى العالم الآخر كما وردت في كتابه « Sobre La Seta Mahometana » الذي أشار اليه آسين وجعله مصدراً يحتمل أن يكون دانتي قد اعتمده . وعلى أساس المعلومات الدقيقة المتجمعة لدينا والحدس المعقول فان المخطوطات الثلاث المحفوظة لكتاب بونا ڤينتورا ، وجميعها من مطلع القرن الرابع عشر ، تحملنا الى مقاطعة بريتانية في شمالي فرنسا (المخطوطة اللاتينيـة المحفوظة بباريس) ، والى انكلترة (مخطوطة اكسفورد الفرنسية) ، والى بروڤنس (مخطوطة الفاتيكان اللاتينية) ، وتدلنا على أن كتاب المعراج (Liber Scalæ) ما لبث أن شق طريقه الى ما وراء جبال البرانس . وأما فيما يتعلق باطلاع الايطاليين على هذا الكتاب فنحن إذا جعلنا تاريخ ترجمته عام ١٢٤٦ (وبذلك نكون قد تخلينا عن فكرة نقله على يد برونيتو لاتيني الذي سبقت سفارته لدى بلاط الفونسو التاريخ المذكور بأربع سنوات) فاننا نعثر على اقتباسين صريحين من قبل كاتبين ايطاليين ، أحدهما يلخص الكتاب تلخيصاً ضافياً مما يثبت أنه كان معروفاً في ايطاليا في منتصف القرن الرابع عشر وأواخر القرن الخامس عشر . ففي ذينك القرنين كانت كتابات راهب ابوليا الفرنسسكاني روبرتو كاراكشيولو الدينية معروفة ومشهورة ، وفي عهد السلالة الأراغونية في نابلي أورد روبرتو هذا في كتابه كلمـة الإيمان « Specchio della Fede » خلاصة لما وصفه هو « بالكتـاب الذي يدعوه المسلمون بالمعراج وبلغة العرب سلم محمد » . ولا ريب في أن هذا هو كتابنا وانه قد اطلع عليه بنص لاتيني . غير أن الشاعر التوسكاني ڤازيو ديڤلي أوبرتي يدنينا أكثر كثيراً من دانتي من حيث الزمان والمكان ، فهو يصف في كتابه دتاموندو (Dittamondo) الفردوس كما يتخيله المسلمون ، منوهاً بكتـاب المعراج في قوله :

« ولكنه في كتابه (أي كتاب النبي محمد ﷺ) الذي يدعى المعراج
يسرد ترتيب طعام الطوباويين
ويتحدث عن كل تفاحة (أي كل ثمرة من ثمار الفردوس) ... »

ويعود الفضل في لفت الانتباه الى هذا المقطع البالغ الأهمية والمؤلف من أبيات ثلاثة الى شيرولي . ترى أي ثمن كان يدفعه آسين لهذا المقطع !

وهكذا تكون السلسلة قد اكتملت . لقد كانت أوربة الغرب أو بتعبير أدق ايطالية القرن الرابع عشر تمتلك نصوصاً موفورة مفصلة ، تمتاز بأمانة النقل ، عن نظرة الإسلام للعالم الآخر ، نصوصاً يستطيع أيّ شاء أن يقرأها بالاسبانية أو الفرنسية أو اللاتينية دونما حاجة الى معرفة كلمة واحدة من اللغة العربية . وما من شك في أن « ڤازيو » قرأها ، وقد أثبت ما قرأه في قصيدته التي لا تُعَدُّ من الشعر الرفيع ، وهي قصيدة فيها مزيج من الأساطير التاريخية الكونية ، يشهد موضوعها عليها بأنها تقليد لشعر دانتي . ونحن لو افترضنا أن مواطن ڤازيو وأستاذه العظيم لم يقتبس عن كتاب المعراج اقتباساً كبيراً فهل نستطيع أن ننفي الاحتمال بأن دانتي قد رأى كتاب المعراج ؟ وهو احتمال يوحي به تطابق مادة الموضوع ، والتماثل في نواح كثيرة محددة ، ووسيلة الانتقال التي ثبتت تاريخياً . إن التعصب القومي الثقافي ـ أو كما أوثر أن أفسر هذا التعصب بقولي التبلد الذهني المقرون بالخجل والافتقار الى دليل إيجابي ـ لم يعد يقوى على إنكار الافتراض الدال على الذكاء المتوقد الذي قدمه آسين قبل ثلاثين سنة وأمكن الآن اثباته بصورة رائعة ، وذلك من ناحية الحدس التي قام على أساسها .

غير ان إثبات حقيقة شيء ، وتقدير قيمتها والمكان اللائق بها ومدى أهميتها في مجموع هذه المادة شيء آخر . ترى كيف يمكننا أن نقدر قيمة الاحتمال الذي يكاد يكون الآن حقيقة واقعة مؤكدة ، وهو أن هذه الخلاصة

(Summa) عن فلسفة الحشر الإسلامية لم تكن مجهولة لدى مؤلف الكوميديا الإلهية ؟ وأي الاستنتاجات يمكن التوصل إليها من هذه المقارنة التي سبق أن أجراها في جوهرها آسين (ما دام ثابتاً أن معظم عناصر كتاب المعراج هذا كانت موجودة في المواد العربية الأخرى التي جمعها ودرسها) ؟ أي الاستنتاجات المنصفة يمكن التوصل إليها من مقارنة المصدر الشرقي بقصيدة دانتي ؟ وأود أن أكرر قولي إن اعتبارات الفن الشعري البحتة لا مكان لها هنا ، ولكن هنالك مشكلة كاملة من أوجه الشبه السيكولوجية والمعنوية والثقافية التي لا تعتبر المقارنة معها مشروعة فحسب بل ملائمة وواجبة . واذا كان البحث فيما اقتبسه دانتي من هذه النماذج وكيف اقتبسه عنها غير ذي أهمية للحكم على دانتي بصفة كونه شاعراً ، فانه عظيم الأهمية لايضاح المصدر الفكري لمعتقداته ، والموقف الديني الأساسي لروحه وطرائق انتقائه ودمجه هذه العناصر الأجنبية في ثقافته المتأهبة للاستيعاب ، أو بعبارة أخرى : ما هو مدى وما هي حدود هذا الاتصال بين فلسفة الحشر والنشر الإسلامية وبين « مضمون » - وهنا استعمل الكلمة بمعناها المألوف في فن الشعر - رؤيا دانتي ؟ أية تأثيرات محددة أثارها هذا الاتصال في تكوين القصيدة الملهمة ؟ وهل يستطيع المرء أن يتحدث عن اقتباس مباشر مادي يكاد يكون آلياً ، وعن أوجه التقابل في المفاهيم ، إن لم يكن في الفن الشعري ، أو أن يتحدث عن الأثر المتغلغل ، إن لم يكن المستبعد لسواه ، للرؤيا العربية السابقة ، في رؤيا الشاعر الايطالي .

ان هذه الناحية لأكثر عمقاً ودقة ، من نواحي القصيدة ، استأثرت باهتمام عالم واحد فقط من العالمين اللذين فسّرا كتاب المعراج ، أما بالنسبة الى العالم الآخر مونوز « Munoz » فالعلاقة بين الكتاب المذكور والكوميديا لاتعدو علاقة الأنموذج بالتقليد ، التقليد الذي عملت فيه بطبيعة الحال يد التحسين والتجميل ، وأضفت عليه صفة البهاء الروحي ، ولكنه على أي حال تقليد مباشر

لا لَبس فيه ، وما كان ليخطر ببال لولا وجود السابقة الأولى . وبعبارة أخرى إن وجود كتاب المعراج ، وثبوت انتقاله الى عالم دانتي ، هما دليلان كافيان لأن يثبتا بصورة آلية الاعتماد المباشر للاحق على السابق في السلسلة الطويلة من أوجه التماثل التي أوردها آسين ، وهي أوجه التماثل في أسلوب التأليف وفي الفكر الأخلاقية واللاهوتية وفي الصور ورواية الحوادث ، وذلك من أسلوب تصميم الأقسام الثلاثة للعالم الآخر ، إلى أسلوب العقاب ، إلى مباهج الفردوس الأرضي ، إلى الرؤى التي تبهر الأبصار في الفردوس السماوي . ويرى مونوز أن سلسلة آسين القائمة على أساس أوجه الشبه واعتماد حلقة على أخرى ، لا تقبل النقض أو الجدل ، وكل ما ينقصها هو البرهان على وسيلة النقل التاريخية . ولما كنا قد وجدنا الآن هذه الحلقة في كتاب المعراج ، فقد انتهى الأمر وصار كل عنصر من عناصر الرؤى الاسلامية ، مهما غمض الشبه بينه وبين رؤيا دانتي ، يؤلف رابطة مباشرة بين الأصل والتقليد ، أو بين الأصل والفرع ، بل قُلْ رابطة بين السبب والأثر . وفي هذه الحال فالكوميديا الإلهية يجب أن تذكرنا في الحقيقة بجامع قرطبة العظيم الذي كُيِّفت أعمدته الشرقية المراكشية بما يتلاءم هو ومذهب التثليث المسيحي .

أما شيرولي فانه يبدي حساً تاريخياً أكثر حذراً (ولا ريب أنه لا يضمر أي تحيز قومي) ؛ وهو لا يرى أن قيام الدليل على معرفة ايطاليا للكتب التي تبحث فلسفة الحشر والنشر الإسلامية ، واحتمال اطلاع دانتي على هذه الكتب ، يكفيان في حد ذاتها ليضعا بين أيدينا الدليل على شاعرية دانتي وروحانيته ومقدار إبداعه . وهو لا يتطرق إلى مشكلة « دانتي والإسلام » بالذات إلاّ في نهاية بحث كامل رائع حول « فلسفة الحشر والنشر الإسلامية وكتّاب الغرب في القرون الوسطى » ، وهو بحث جمع فيه شيرولي وحلل كل أثر من آثار معرفة كتاب الغرب المسيحيين للفكر الإسلامية عن العالم الآخر ، حتى ما كان

منها مستقلاً عن كتاب المعراج : فمن مؤلفات بولوجيوس والفاروس القرطبيين ، الى بتروالفونسو ، الى مجموعة طليطلة (Collectio Toletana) ، ومن غوغليو دالقاربنا الى جان دوڤيرتي وغوغليو الطرابلسي ، ومن رامون مارتي الى لولو (Lullo) ، ومن توماس بورن الى روجر بيكن . وتبرز من هـذا البحث صورة كاملة مدهشة تجمع بين ما كتب من طراز الدفاع الركيك الشعبي عن العقيدة المسيحية ، وما في ذلك من مبالغة وتهويل شديدين بالنواحي الدنيوية والحسية للفردوس كما يصوّره القرآن (ونلاحظ هنا انه من وجهة النظر المسيحية فان مهاجمة الفكرة الإسلامية عن جهنم أشق كثيراً من مهاجمة فكرة الفردوس) ، وبين المحاولات الفلسفية ، التي اضطربت بتأثير قوة الفكر الإسلامي ولكنها لم تكن تجهله ، لإضفاء الصبغة الروحانية على عقوبات العالم الآخر ومباهجه وللتوفيق بين استقامة الرأي في العقيدة الدينية وتقرير فكرة سامية عن العالم الآخر . وقد بلغت مدرسة أكسفورد الغاية في مجال التفسير المسيحي للفكر الإسلامي في القرون الوسطى ، فقد درست هذه المدرسة بدقة متناهية نضال ابن سينا وابن رشد لوضع الغبطة الفلسفية المدركة إلى جانب النواحي الأخرى من فلسفة الحشر والنشر الإسلامية في القرآن ، كما بلغ هـذه الغاية بطبيعة الحال ريموندو لولو ، المفسّر الكبير للعالم الإسلامي الذي عاش في القرن الثالث عشر واستقى معرفته عنه من المناهل الأصلية الأساسية ، فاستطاع أن يقدم لمعاصريه أصدق وأكمل صورة للفكر الإسلامي وبصورة خاصة لفلسفة الحشر والنشر العربية الإسلامية .

ولكن دعنا نهبط من هذا البحث العام الواسع الذي يدال على القيمة الفريدة الفذة لدراسة شيرولي لنعود الى دراسة العلاقة المباشرة بين دانتي والإسلام تمهيداً لتقدير أثر كتاب المعراج في الكوميديا الإلهية تقديراً واقعياً . فنحن إذا درسنا مجمل معرفة دانتي بالديانة والعلوم والحضارة الإسلامية نصل الى نتائج

أبسط كثيراً . فمن الوجهة التاريخية ليست هناك أهمية كبرى للأبيات المتعلقة بالنبي محمد (ﷺ) في المقطع الثامن والعشرين من قصيدة الجحيم ، إذ لا تتبدل فيها الصورة التقليدية التي كان يعزوها الغرب للنبي العربي في القرون الوسطى ، وقلما نجد في مؤلفات دانتي العقائدية مقتبسات عن مؤلفين مسلمين أمثال الفلكيين الذين عرفهم الغرب بأسماء : ألبوماسار (Albumasar) والفراغانو (Alfragano) وألبتراغيو (Alpetragio) والفلاسفة ابن سينا وابن رشد ؛ واذا وجدت هذه المقتبسات فانما تكون قد أخذت بطريقة غير مباشرة عن البرتوس مانيوس (Albertus Magnus) وسان توماس : وعلى أي حال فالمؤلفات الإسلامية لم تكن متوفرة لدانتي إلاّ بالنص اللاتيني . وخلاصة القول أننا نجد أنفسنا مضطرين إزاء هذا كله إلى إنكار وجود ذلك الاطلاع الخاص على العالم العربي الإسلامي والاهتمام الخاص به الذي يلحظه البعض في مؤلفات دانتي . ويبدو لنا أن معرفته بالعالم العربي الإسلامي لا تزيد على معرفة أي رجل واسع الاطلاع في عصره . ومع ذلك وبالنظر الى أن دانتي كان العالم الكبير والمفكر المتسع الثقافة (Clerk, Scholar) فان بعض الفكر الإسلامية الفلسفية والأخلاقية ـ وخاصةً المتعلق منها بفلسفة الحشر الإسلامية ـ قد تسربت الى شاعرنا بمعزل عن كتاب المعراج وعن غير طريقه : مثال ذلك نظرية ابن سينا وتعابيره عن النور ، المشار اليها اشارة صريحة في كتاب (Convitio) والمقطع الوارد في كتاب مجموعة طليطلة (Collectio Tolenta) والذي يتحدث عن بقعة فوق حاجب الروح القادمة حديثاً ، تزيلها الملائكة لدى دخولها الفردوس ، مما يعيد الى ذاكرتنا في الحال علامات الخطيئة السبع التي تمحي عن حاجب دانتي تدريجياً في أثناء صعوده شعاب المطهر ، وبهذا نصل أخيراً الى كتاب المعراج ، ومن المرجح أن يكون دانتي قد اطلع عليه ، فإلى أي حد كان الكتاب مصدر إلهام عام له ، وأي أثر خاص كان له فيه ؟

لقد أجاب شيرولي عن هذا السؤال إجابة تميزت بمنتهى الحكمة وذلك مراعاةً منه لا لمؤيدي دانتي بل للحقيقة ذاتها . فهو يظن ان قراءة الرؤيا الإسلامية يمكن أن تكون عند دانتي أحد الحوافز الخارجية التي حفزته الى معارضة ما كان يُفترض أنه كتاب مقدس في الإسلام (لأن هذا ما كان يعتقده الغرب في كتاب المعراج) ، بقصيدة مسيحية عن « رحلة الى الآخرة تسمو بصدق العقيدة والحذق الفني في معالجة أعظم مواضيع الملاحم الدينية » على الصور الرائعة التي ربطها الاسلام ، بالفردوس والجحيم » ، بدون أن ننسى لحظة واحدة الدور الأولي الذي تلعبه في أصل القصيدة فكرة الحياة الجديدة (Vita Nuova) أو بالأحرى الحياة الجديدة نفسها والحياة المتقمصة المنقولة ، والرغبة في أن يقول في ملهمته بياتريس « ما لم يُقَل في أحد من قبل » . وفي نطاق هذا التأثير العام نستطيع أن نعزو إلى السابقة الاسلامية فكرة الدليل الصابر الكريم ، مفسِّر جميع الأسئلة والشكوك (ويقوم بهذا الدور فرجيل وبياتريس مع دانتي وجبريل مع محمد) ، كذلك المسائل الدقيقة الكثيرة المتصلة بعلم الكون ، واللون المحلي الخاص لأقوال إله الجحيم بلوتوونمرود أو نمبروتي تلك الأقوال الغريبة التي تعيد إلى الذاكرة بعض العبارات العربية الواردة في النصوص اللاتينية لكتاب المعراج . ولكن دعنا الآن نواجه السيل الدافق من المتشابهات بين دانتي وكتاب المعراج . ان شيرولي عندما يستعرض أكثر هذه المتشابهات اتصالاً بموضوع البحث لا يغيب عنه أن يؤكد أهمية كل منها ، ليس على حدة وانفصال ، بل كجزء متحد بالمصادر الأخرى العديدة للالهام التي كانت قريبة المنال لدانتي ومألوفة بالنسبة الى ثقافته وخياله : ومنها المصادر الكلاسيكية الاغريقية اللاتينية ، والتوراة والإنجيل والمصادر المسيحية ، وهي مصادر ساهمت في تكوينه الروحي (ذلك لأن أي اطلاع خاص من قبله على أمور العالم العربي الإسلامي هو ، كما رأينا ، مجرد افتراض ووهم) ، تلك المصادر التي

كان بالإمكان في كثير من الأحيان أن توفر لدانتي الإلهام نفسَهُ الذي يوفره له كتاب المعراج لتزويده بتفاصيل رؤياه . وهذه هي الحال مع نسر جوبتر الذي صوّره دانتي ، حيث يمكن توحيد المصادر الكلاسيكية ومصادر التوراة المعروفة ودمجها بالصورة الإسلامية للمَلَك الذي يتخذ شكل ديك كبير ويقف على الأرض السابعة ، ولكنه يرفع رأسه عالياً حتى يداني عرش الإله وينشد مسبحاً بحمده ومجده[1] . وكذلك فمن الواضح أن السلّم الالهي الذي يستخدمه الاله (Saturn) ، ذلك المرتقى الذهبي اللون ، قد استوحي في المقام الأول من سلم يعقوب الوارد ذكره في التوراة ، ولكن هذا لا يستبعد الالهام الجزئي من معراج محمد الممتد من القدس إلى الفردوس الذي أعطى كتاب المعراج اسمه . وهكذا فيما يتعلق بالمحاكمة على الجسر الدقيق المسمى بالسراط ، القائم أمام الفردوس ومن تحته الجحيم تفغر فاها ، فهي تبدو في نظر شيرولي مماثلة للمحاكمة بالنار التي يتعرض لها دانتي لبلوغ الفردوس الأرضي ، هذا الفردوس الذي تبدو الدوافع الاسلامية لوصفه وصفاً أقرب الى الحس وأكثر إيحاء ، رغم أنه ينبغي أن لا ننسى الدور الذي تلعبه في هذا الايحاء أساطير التوراة عن جنة عدن ، والأسطورة الكلاسيكية عن حالة البشرية البدائية البريئة المباركة التي يشير اليها دانتي بقوله :

لعل الذين أعلنوا في غابر الأزمنة في أناشيدهم
قيام العصر الذهبي والرغد الذي يسوده
إنما حلموا بذلك المكان على جبل « بارناسوس »

ان دانتي نفسه ليلفت انتباهنا في هذه الأبيات من الشعر الى الصور السامية التي كانت تسبح أمام خياله السامي عندما أبدع بمقاطعه الشعرية الثلاثية الخالدة الغابة الالهية كثيفة ونابضة بالحياة ؛ ومع ذلك فالمرء لا يستطيع أن ينكر

(١) ليس في الإسلام نصّ في هذا . (لجنة المجلة)

إنكاراً تامًّا ما حصل عليه شاعرنا من إلهام في عمله الابداعي من ذكريات (فردوس المباهج) ، في كتاب المعراج وما فيه من ملذات هادئة ، لكنها صبيانية ، وبنبوع مزدوج يتحول في قصيدة دانتي الى نهري « ليث » و « يونوي » ، وحادث وصول زمرة جديدة من أرواح البشر والعرائس اللاتي كن في انتظار هذه الأرواح بحب وشغف . ولكن حتى في هذه الحالة فإن إمكانية وجود العنصر الاسلامي متحداً بعناصر أخرى كثيرة ، أعظم منه حيوية ورسوخاً في ذهن الشاعر ، أمر يجب أن لا يبالغ فيه الى حد يتعارض مع ما يمليه العقل أو يتعدى حد الاحتمال ، ويجب تبعاً لذلك أن لا يطلب إلينا اعتباره مصدراً رئيسياً وموجِّهاً للالهام . وإننا لنتساءل : ترى هل كان على دانتي أن يقرأ في كتاب المعراج عن حور محمد ليحلم أنه رأى من جديد في مجد الفردوس الأرضي بياتريس ، تلك التي كانت أسمى تجربة روحية في شبابه والنجم القطبي لحياته ؟ وهكذا يمر شيرولي مرّاً مريعاً خفيفاً بهذا الخضمّ الواسع من المتشابهات ، (لا بسبب السطحية ، بل لدقّة وروعة المعالجة) مختبراً كلاًّ منها ازاء مبدئه الأساسي ، وهو ما نردّده هنا مرة أخرى ، الاعتراف باحتمال امتزاج الدافع الاسلامي مع عدد كبير من المصادر الأخرى التي كان لها دوماً المكان الاول في ذهن دانتي وروحه ، حتى ولو انه من الثابت تقريباً أن دانتي اطلع على كتاب المعراج ، ذلك النص الوحيد الذي فتح أمامه الباب المؤدي الى عالم آخر ، لولا ذلك لبقي غريباً عن روحه ، وغريباً عن القيم الأساسية لنفسه اللاتينية المسيحية ومناقضاً لها .

وهكذا فاننا عندما نحكم ، في تحليلنا النهائي ، على الصلة القائمة بين دانتي وكتاب المعراج أو أي عنصر آخر من عناصر فلسفة الحشر والنشر الاسلامية يمكن أن يكون قد اتصل بالشاعر بوسيلة من الوسائل [وهنا أفكر بصورة خاصة بالمواضيع الجدلية لمجموعة طليطلة (Callectio Toletana)] يجب أن

لا ننسى ما يجزم به شيرولي في صفحاته الأخيرة التي تمتاز بروعة خاصة ، ألا وهو أنّ دوافع الالهام والتفاصيل الروائية التي يمكن إرجاعها إلى مصادر عربية قد دخلت الكوميديا كجزء من بناء أوحى به كله مصدر آخر ، مختلف عنه ، ولكنه مثالي وفريد في نوعه ، ألا وهو المصدر المسيحي . ويوضح لنا شيرولي من هذا الاختلاف الأساسي في الروح ، هـذا الاختلاف الذي يتميز تقريره والاعتراف به بما كان لبيضة كولمبس من طبيعة الوضوح الكامل والفعالية في حل المشاكل ، ناحية واحدة فقط نجملها في الأمور التالية وهي : الأهمية المطلقة للايمان في عقيدة الخلاص الاسلامية والأعمال كوسيلة للخلاص عند دانتي وفي المسيحية ، وتقرير أهمية البر والمحبة في العقيـدة المسيحية كنقيض لمشيئة الله التعسفية [1] التي لا تقبل الجدل أو الاعتراض في الاسلام ، واختلاف قيمـة الصلاة بين الطقوس الاسلامية الالزامية المضنية [2] من جهة وقوة المحبة الحيـة التي تفعل فعلها مع العدالة الالهية في الصلاة المسيحية . فليس باستطاعتنا اذن أن نتحدث عن انموذج وتقليد ، حتى ولو سلمنا باحتمال الانتقـال المادي لصور وفكر معينة ، ولا عن مجرد إضفاء الصبغة الروحية في حين يختلف الالهام الأساسي والموقف الأساسي اختلافاً جذرياً . ولذلك فإن المحرر الايطالي لكتاب المعراج يستنتج أن القصيدة المقدسة لا يمكن مقارنتها بجامع قرطبة ، المكرّس الآن لمذهب يختلف عن المذهب الذي أنشئ هذا البناء الرائع في سبيله ، ولكن لكي نقدم مثالاً هندسياً أكثر ملاءمة لعلاقة دانتي بالعالم العربي ، يجدر بنا أن نلجأ الى ذلك العمود العربي الاسباني ، المنقوش عليه اسم صانعه المسلم والقائم في بناء مسيحي خالص ، من الوجهتين التاريخية والفنية وفي مجموعه وجميع تفاصيله ،

(١) ليس في الإسلام مشيئة تعسفية ، ولا إكراه ولا إلزام ، بل في القرآن الكريم « لا إكراه في الدين » وفيه « لكم دينكم ولي دين » . (لجنة المجلة)

(٢) ليس في العبادة الإسلامية طقوس . والصلاة المفروضة لا تحتمل أكثر من خمس دقائق ، وأما القداس الكنسي ففيه طقوس وأزياء مختلفة معروفة . (لجنة المجلة)

ونعني به كاتدرائية بيزا ، حيث مازال العمود المذكور يشهد بفن مجيد آخر بعد أن أخذ عرضاً ونتيجةً لحادث معين خاص واستخدم في إعطاء شكل رسمي ظاهري لمثل أعلى يختلف عنه في الناحية الدينية ، والشكل الظاهري .

إن أحدث دراسة شاملة للمشكلة القديمة التي أثارها آسين لأول مرة وأعيدت دراستها الآن على ضوء أحدث اكتشاف في الموضوع يؤدي بنا الى النقطة التالية : وهي كما أسلفنا أن العالمين اللذين ترجما كتاب المعراج هما أبعد ما يكونان عن الاتفاق في النتائج التي توصلا إليها وفي أسلوب استخدامها لترجمتيهما . أما تقرير أي الاثنين يجب أن نتبع في موقفه واتجاهه (ويبدو من نافلة القول أن أذكر هنا أياً من المترجمين الاثنين يعتبره كاتب هذه الأسطر مصيباً) فهذا يتوقف على إدراك الناقد الفرد وحاسة الحكم الصحيح على الأمور عنده ، معززين ، كما يجوز لنا أن نضيف ، بالاطلاع المباشر على انتاج دانتي وتفكيره وفنه ، وهو اطلاع كان آسين العظيم يتمتع به ولا ريب ، بخلاف بعض الذين رجعوا إلى كتابه . ولكننا نرى أنه ، حتى في نتائجهما المتعارضة سار محررا المعراج الذي نقل إلى الغرب بفضل الملك الفونسو شوطاً كبيراً من الطريق مترافقَيْن ، والحقيقة هي أن هذا الجزء المشترك من الطريق الذي تكتنفه حقائق إيجابية لا يشوبها أي خلاف في التفسير ، هو الذي يدلنا على مدى النصر الذي أحرزه آسين بعد وفاته .

إن أستاذ مدريد الذي وقف وحده في وجه عدم مبالاة الذين يأبون التصديق وعدائهم ، أكَّد أن المعتقدات الإسلامية المتعلقة بفلسفة الحشر والنشر والتي جمعها وحلَّلها وانتقاها من أكثر مجالات الأدب العربي تباعداً ـ التقليدي منها واللاهوتي ، والصوفي والتهذيبي ، والعلمي والشعبي ـ لم تكن تلك المعتقدات تختفي وراء ستار حديدي قوامه اللغة والحضارة عن عالم الغرب اللاتيني وحبه للفضول والاستطلاع . وقد تتبع آسين الى أبعد الحدود المعروفة آنذاك وأقصاها

تسرّب هذا التراث الشرقي إلى العالم اللاتيني ، وبعد أن سدّ بدافع من الإيمان الحدسي جميع الفجوات التي واجهته رأى هذا التراث يزدهر في كثير من الأحيان بمماثلات ومشابهات مدهشة في (ملحمة دانتي الملهمة) ، وهي أعظم ما وصل اليه الإنتاج الفني للعصور الوسطى المسيحية . وبدا هذا التسرب الذي تتبعه آسين مماثلاً لمجرى الفيوس الأسطوري ، اذ اختفى في أعماق أرض اسبانيا ليظهر مجدداً في إيطاليا بعد انقضاء فترة من الزمن وقد اكتسب شكلاً خالداً في شعر دانتي . وكان يكتنف مجرى هذا الجدول في باطنه غموض شديد زاد فيه أن المرء لم يكن ليعرف أي المصادر المتعددة التي استقصاها آسين هو الذي وصل بالطريق المجهولة الى الهدف غير المرتقب . أما الآن فقد اتضحت المشكلة وتبسطت في آن واحد . فتلك النصوص العميقة الغور وغير المترجمة من الأدب العربي العالي ، كمؤلفات أبي العلاء المعري وابن عربي وما ماثلها لم تسترع انتباه دانتي بطريق مباشرة ؛ ولكنه من المحتمل أن يكون إنتاج من الأدب العربي الشعبي ، تلذ مطالعته وله طابع تهذيبي ، قد وصل إلى دانتي ووقع تحت بصره وعينيه ؛ ذلك لأنه من المؤكد أن ذلك الإنتاج (وهو كتاب المعراج) قد وصل الى البيئة التي كان يعيش فيها دانتي وانتشر في الجو الثقافي الذي كان يستنشق هواءه ، وهو أمر ثبت لدينا بعد نشر ترجمات الكتاب اللاتينية التي سبق لنا ذكرها ، والتي يرجع الفضل في وجودها الأول الى ما تحلى به ملك اسبانيا الفونسو من حب استطلاع مبدع خلاّق . وبهذه الوسائل ، وربما بها وحدها ، نستطيع أن نتحدث عن اتصال مباشر ، ، لولا ذلك ما كان ليخطر ببال ، بين ثقافة دانتي (وأعني بها ثقافة الشاعر وثقافة مجتمعه) وبين المجموعة المظيمة من المواد العربية التي جمعها آسين ، تلك المجموعة التي كان اتساعها وتنوعها عائقاً في طريق قبول نظريته . وخلاصة القول فقد ثبت الآن وجود هذا الاتصال غير المباشر بصورة واضحة المعالم . والى هذا الحدّ وبموجب هذه الشروط ،

يبدو حدس آسين لنا جميعاً في الوقت الحاضر ثابتاً ساطع النـور . أما إذا تعدينا هذا الحد فسنجد آراء متعددة مختلفة فيما يتعلق بكيفية تفسير المختصين بدراسة دانتي للحقائق التي تم إثباتها ؛ وكما رأينا ، فهنالك من يرى أن الاتصال الذي تم ايضاح طريقه ، يثبت الدور الرئيسي الحاسم الذي يقول آسين إن فلسفة الحشر والنشر الإسلامية قد لعبته في خلق أعظم قصيدة مسيحية . ولكن هنالك من جهة أخرى أولئك الذين ، بنتيجة التمحيص والتدقيق والمقارنة الماهرة ، يعترفون بوجود اقتراحات وإيحاءات ، طابعها التعميم ، وصور ودوافع رافدة ، طابعها التخصيص ، دخلت جميعاً في روحانية وثقافة وخيال ، لبست سامية ومتفوقة فحسب ، بل ومختلفة عن تلك الاقتراحات والدوافع والصور اختلافاً تاماً جذرياً .

ومهما يكن من شيء فلنقبل الأمور التي نتفق حولها بدلاً من التشبث بالأمور التي نختلف عليها . ولنرحب باكتشاف هذه القطعة الجديدة من شبكة الثقافة الدولية للقرون الوسطى ، تلك الشبكة التي تميزت بالمتانة والصلابة والمرونة ولم تعرف الأستار الحديدية (وهذا القول يخجلنا ويبعث على الاضطراب عندنا نحن أبناء هذا العصر) ، بل اجتازت أبعد المسافات وأعظم الحواجز المادية والروحية (بفضل التعاون بين القوى الفكرية) مما تحسدها عليه منظمة اليونسكو في يومنا هذا ، وذلك بعد أن سلطت على القطعة المذكورة أنوار انبعثت عن مجهود قام به في آن واحد عالمان أحدهما اسباني والثاني ايطالي . ولنفكر مرة أخرى هنيهة من الزمن في هذه السلسلة السحرية : كتـاب المعراج العربي ، ملك اسباني ، طبيب يهودي ، ومسجل عقود ايطالي ... ، وفي الصور الخيالية للآخرة التي ازدهرت بصورة غامضة في قلب شبه جزيرة العرب ، وقد أحاطت بالبحر الأبيض المتوسط ونفذت الى لغة تسكانية العذبة ووصلت أرض فلورنسة

فأسهمت في إخصاب التربة التي أنتجت زهرة الكوميديا الإلهية السامية ، هذه القصيدة المقدسة التي أحاطتها يد الأرض والسماء ، ونكرر القول هنا اننا نقصد أرض الحضارة المسيحية وسماءها ، ولكنها سماء لا تخلو من انعكاسات من السماء المرصّعة بالنجوم ، التي حلّق فيها البراق المجهول الغامض في ليلة الإسراء المقدسة عند المسلمين ، ومن أرض الإسلام وخاصةً أرض اسبانيا حيث التقت حضارتان وتمازجتا في اتحاد عجيب ، وحيث أدرك بالحدس القوي النفاذ ، عالم محب للعزلة ، قبل خمس وثلاثين سنة ، انتقالاً أدبياً رائعاً ، ثبت وجوده الآن بالوثائق المحسوسة القاطعة .

فرانسسكو غابريلي
ترجمة : موسى الخوري